مطعم الحاج مدبولي..

ذات صباح ، وقتها كانت الشمس قد برصت، وارتعشت، وبدأت البقع البيضاء تتناثر علي سحنة الكون، كنت متوجهاً مبكراً إلي مقر عملي، شعرت -ولأول مرة- بالجوع مبكراً، فتوجهت إلي مطعم (الحاج مدبولي للفول والفلافل)، القريب من مبني مديرية الصحة التي أعمل بها، وبعد أن تناولت رغيفاً جيداً من الفول المدمس بالزيت الحار، وقبل أن أنهض لدفع الحساب، دخل المحل رجل يقارب الستين، ينحني قليلاً من حمل السِنين علي كتفيه، عليه ثياب عادية، لكنه كان مضمخاً بكمٍ من الأوساخ ، جلس دون مقدمات منه علي كرسي مجاور لي، كان لأحد الزبائن منذ دقيقة، واقتربت أصابعه من طبق كان أمامه، الطبق به بعض اللقيمات (أحرف يابسة من رغيف خبز بها بعض من فتافيت أقراص الطعمية)، صوت همهمته يتداخل مع عجيج الحجر الدائر لهرس الفول، وبين لغط الزبائن الغفيرة، تناول اللقيمات وكأن الموضوع عادي،

أنصتت لصوت تنفسه اللاهث وهو يغادر المحل دون أن يحرك ساكناً إلا أن المنظر-ربما لأنني أراه لأول مرة- هزني، ورجَّ نفسي بقوة وحزن، المهم، حاسبت علي رغيف الفول وغادرت مسرعاً؛ لألحق سجل الحضور والانصراف..وفي اليوم التالي.. كررت زيارتي إلي نفس المطعم، وحدث نفس السيناريو السابق، فسألت عن حكاية هذا الرجل، فتطوع أحد الزبائن بالإجابة دون أن أطلب منه:

* هذا الرجل ليس له عائل، يأتي يومياً إلي هذا المحل، ويلتقط تلك اللقيمات ويغادر، ولأن هذا المحل يقدم خدمة (٢٤) ساعة، فإن الرجل يأتيه (ثلاث مرات

يومياً)، علي الإفطار وعلي الغذاء وعلي العشاء، ويفعل ما يفعله لا زيادة ولا نقصان، و أهو عايش..!

لا أخفي عليك سراً، المشهد أوجعني بجد، لن أدخل في مهاترات الغير، وأدش كلاماً وأسرد حكايات ومعارضات لا طائل ولا راجع منها، لكن المشهد كما أوجعني شعرت بمرارته تدب في حلقي، وتنتشر بقوة، ذهبت اليوم لنفس المطعم،-بعد انقطاعي عنه فترة- كان الليل قد نسج أول خيوطه علي هذا الحي، وانتظرت أن أري هذا العجوز صاحب اللقيمات اليابسة، فلم أجده، وعلمت من حديث أحد رواد المطعم الدائمين، أن العجوز مات من يومين، الخبر أزعجني، أحسست بالرجفة تجتاح أوصالي، وترحمت عليه، ولكن الذي أزعجني أكثر ما سمعته من صبي يعمل بالمطعم، يغسل الصحون والملاعق ، شعرت أن هذا الصبي غير مسئول ومستهتر، قال بسخرية:

*موت هذا الرجل كان خسارة كبيرة علي المحل، فقد تكبَّد «الحاج مدبولي» صاحب المحل مبلغاً كبيراً لشراء بعض القطط السِمان لتخلصنا من بقايا لقيمات الزبائن..!!